

مملوءة دفوفاً وقرافراً ومزامير وعيداناً وروطاً وأرببة وكنياتارات وجميع اللهو ، فقال لنا المعصوم اكسروا ما وجدتم من اللهو ، فقام أربابها بالصراخ ، وساروا شاكين نحو قاضيهم ابن معيشة (22) وكان يومئذ قاضيها ، فقال لهم لولا ما رأوا في السنة ما كسرناها ومنزقها ، مروا فانكم مخالفون للحق ، وكان ينالو يومئذ سلطان الغرب ، وكان يسكن بنى تاودة (23) فخرج في ذلك الوقت ينالو لغمارة ، وكان فيهم أقوام مخالفون عليه ، فخرج إليهم ينالو وقتل منهم ثلاثة أشياخ : يگساس ، وحيان ، وسحنون ، ثم قتل لجاية (24) وساق رؤوسهم وعلقها في باب السلسلة (25) وأتا بغنائمهم وكان مظفر يحكم فاعن والجاني يومئذ مشرفهم بعدما كان مقدماً على الجيارين ، وكان الجاني له حظ عظيم حتى لم يكن في زمن الحشم (26) أحظاً منه ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، فعند خروج الجاني للقصر خرج المعصوم من فاس متوجهاً لبلاد السوس وغدا نحو مكناسة ، والله الموفق للصواب .

(22) عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي ، كان قاضياً بفاس على عهد السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ، وأنجز بأمره عدداً من المنشآت العمرانية بجامع القرويين وسائر المدينة ، صرف عن قضاء فاس عام 533 هـ .

(23) بنى تاودة هي القرية المعروفة اليوم بفاس البالي الكائنة ببطن البوار من قبيلة فشتالة بقيادة قلعة سلاسل من إقليم فاس ، بنا بها المرابطون حصناً لمراقبة سكان جبال غمارة ولما ثار مرزوغ على الخليفة عبد المؤمن بن علي سنة 1163 م استولوا على بنى تاودة وخرب الحصن وقتل كثيراً من السكان فاندثرت القرية وعرفت منذ ذلك الحين باسم فاس البالي الذي مازالت تسمّى به إلى الآن .

(24) لجاية ويقال أيضاً جاية وتعرف أحياناً بالآلف واللام (الجاية) قبيلة جبلية واقعة بقيادة غفساي على نهر ورغة شمالي مدينة فاس ، تشتمل على تسعة بطون : عين الريحان ، وبنى بوزولات ، وبنى محمد ، وبنى زيد ، وبنى كيلان ، وأولاد قرون ، وزاوية مولاي عبد الرحمن ، وزبور المشيط ، والزراودة ، وهي من جذم أوربة البربري .

(25) ما زال اسم هذا الباب معروفاً إلى اليوم بفاس ، وإن كان الباب اندثر من زمان ، وهو واقع أسفل رأس الشراطين على وادي بوخرارب أمام كنطرة الطرافين الواصلة عدوة الأندلس بعدوة القرويين .

(26) يريد المرابطين ، أطلق عليهم الموحدون هذا اللقب لأنهم في نظرهم في حكم الحشم أي الخول والعبيد ، أو في حكم النساء المتحشمات لأنهم كانوا يتلثمون .

باب نذكر فيه دخول المعصوم مكناسة

إعلم أن الله تعالاً لما أمر بخروج المعصوم من فاس نزلنا بمغيلة (27) عند يوسف بن محمد وعبد الرحمان بن جعفر ، ثم منها نحو مكناسة ، فلما أشرفنا على الكدية البيضاء (28) نظر المعصوم الكدية فإذا بها مملوءة رجالاً ونساءً تحت شجرة لوز ، فدخل المعصوم فيهم ميمنة وميسرة وبدناهم يميناً وشمالاً ، ثم سار إلى السوق القديم ونزلنا به بمسجد أبي تميم عند الحسن ابن عشرة ، وكان طلبة مكناسة يأتونه الذين منهم أبو بكر بن حرزوز وأخوه أحمد ، وأحمد الزرعوني وأخوه علي ، وبكار بن إسماعيل ، وعبد الرحمان بن مجاهد ، وعبد الرحمان بن عريوش ، ومروان والحاج منصور ، والحاج حمو ، ويحيى بن كنداف ، ومحمد بن زغبوش فكانوا يأخذون عنه العلم ويذكرونه فيما عندهم من العلم والفهم ، فكان المعصوم يبين لهم ما جهلوه ويذكر لهم ما لم يذكروه أقام بها المعصوم ثم ارتحل منها في ساعة سعد وسلامة .

باب نذكر فيه خروج المعصوم من مكناسة

إعلم أنه لما خرج سيدنا المعصوم من مكناسة جد بنا السير حتى وصلنا خميس فنزارة (29) فنزلنا عند عبد السلام بن عيشوش وولگوط بن ميمون ، ثم منها نحو سلا في ساعة سعد وكرامة .

27 مغيلة : ما زالت هذه القرية معروفة إلى اليوم ببطن المهايا من قبيلة عرب سايس شمالي الطريق الرابط فاس بمكناس .

28 لعلها هي المسماة الآن حمرة المشرفة على مدينة مكناس القديمة ، ولا ينبغي الخلط بينها وبين الكدية البيضاء بالريف التي صارت تدعى فيما بعد مرسا غساسة .

29 خميس فنزارة : هي قرية الخميسات الحالية ، ويظن أن كلمة فنزارة تحريف من النساخ لكلمة فنزرة التي لا تزال معروفة إلى اليوم بتلك الجهة .

باب نذكر فيه دخول المعصوم سلا

إعلم أنه لما دخل المعصوم سلا نزل بها عند الفقيه أحمد بن عشرة ، وكان يأتيه الشبلير ومحمد بن الخير الوقاصي ، والسلطان بن قيلو ، والقاضي حسون بن عشرة ، فكانوا يأخذون عنه العلم ويأمرهم أن يأمرؤا الناس بالمعروف وينهؤهم عن المنكر ، وأقام بها أياماً عديدة ثم أمرنا بالرحيل نحو مراكش فخرجنا على بركة الله تعالى .

باب نذكر فيه خروج المعصوم من سلا

إعلم أسعدنا الله وإياك أنه لما خرج سيدنا المعصوم من سلا جد بنا السير حتى وصلنا تابرن دوست ، فلما نزلنا فيها تلك الليلة سرقت لنا الدابة التي كانت تحمل لنا الأسفاط ، وذكر أنه سرقها عبيد يقال لهم أولاد تبرزوفت ، ثم جد بنا حتى وصلنا وادي أم الربيع ، وما كنا نعرف أن الامام يتكلم باللسان الغربي ، فأردنا الجواز فمنعونا حتى نعطي المكس وهو المكري ، وقالوا لنا تعطون على كل رأس كذا وكذا ، فلما سمعهم المعصوم قال لهم : « أَوْمَوْرَنْ مَكْلَوْنَيْنْ » إن سؤوس آداون ناك « وصاح عليهم ثم جزنا وكان في بعض ما قال لهم إنما السبيل للمسلمين ، وأنتم تقطعونها ، وهذا غير جائز في الشرع ، ثم جد بنا السير حتى وصلنا مراكش بتوفيق المهين الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

باب نذكر فيه دخول المعصوم مراكش

وذلك أنه لما دخل مراكش نزل بها بمسجد صومعة الطوب ، فمكثنا بها إلى يوم الجمعة ، ثم أقبل إلى جامع علي بن يوسف ، فوجد علي بن يوسف قاعداً على غفارة ابن تَشْرَمَت والوزراء واقفون ، فقال له الوزراء ود الخليفة على الأمير (30) فقال لهم وأين الأمير ؟ إنما أرا جوارى منقبات ، فلما سمع ذلك علي بن يوسف حط النقاب عن وجهه وقال لهم صدق ، فلما رآه المعصوم قال له الخلافة لله وليست لك يا علي بن يوسف ، ثم قال له المعصوم يا علي ، قم عن هاذة المُغَيَّرَة تكون إمام عدل ، ولا تقعد على هاذة الغفارة المغيرة ، فأزالها وأعطاهم لمولاه (31) وقال له ما تَغْيِثُرها ؟ قال له لأنها تقعد بالنجاسة ، ثم خرج المعصوم إلى باب المسجد وقعد حتى خرج الناس من المسجد ودخل مع الفقهاء بالذاكرة حتى قهرهم القهر الكلبي .

ثم خرج منها لمسجد عرفة فمكث فيه أياماً عديدة ، وذلك أن علي بن يوسف بعث العلماء حتى وصلوا من كل جانب ومكان ، فذاكرهم المعصوم فأفهمهم ، فقال الفقيه ابن وهيب (32) لعلي بن يوسف ثقفه يا أمير المسلمين ، لأن هاذا هو صاحب الدرهم المركن ، إجعل عليه كبلًا ، كي لا تسمع له طيلاً !

(30) أي أد واجبات الخلافة وتشريفات الملك للأمير ، والعبارة عامية ما زالت مستعملة إلى الآن .

(31) لصاحبها .

(32) مالك بن وهيب الاشبيل : كان فقيهاً فيلسوفياً مشاركاً في جميع العلوم ، إلا أنه كان لا يظهر إلا ما ينفق في ذلك الزمان وهو الفقه والعلوم الدينية التي كان لمتاعليها سلطان على نفوس ملوك الدولة المرابطية ، قال عبد الواحد المراكشي في المعجب : رأيت له كتاباً سماه قرائة الذهب ، في ذكر لثام العرب ضمنه لثام العرب في الجاهلية والإسلام وضم إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب فجاء الكتاب لا نظير له في فنه ، رأيت في خزانة بني عبد المؤمن ، تنظر آراء مالك بن وهيب في المهدي بن تومرت في كتاب المعجب من III طبع سلا .

لهذه صفة صاحب الدرهم المُرَكَّن ، فأمر علي بن يوسف لأبي بكر بن تَيْيَز مَتَ (33) أن يحمله إلى السجن، فلم يرد الله تعالى، فقام يينثان بن عمر (34) وسير بن وربيل وقالوا له يا أمير المسلمين ماذا يقال عنك في البلاد تسجن رجلا يعرف الله وهو أعرف أهل الأرض بالله تعالى فغضب علي بن يوسف وخرج عنهم ، فقام يينثان بن عمر وحمله إلى داره ، وقال يافقيه سر بنا إلى الدار أنت وأصحابك ، فلما وصلنا إلى الدار تركنا بها وسار لعلي بن يوسف وقال له يا أمير المسلمين كيف تكون أمير المسلمين وتظلم رجلا من علماء المسلمين ؟ فقال ياعمر : قال لي الفقهاء إن خراب دولتنا على يديه ! فقال له يا أمير إن كان خراب دولتنا على يديه فقد خربت قبل رؤيتنا إياه ، فقال له علي بن يوسف فما نضنع به ؟ فقال له : يا أمير المسلمين اسركه في بساطك يعلمنا العلم أو اتركه يسير في بلادك ، فقال له علي بن يوسف : مره يخرج من بلادنا .

فوصل يينثان بن عمر للإمام المعصوم ، وقال له يافقيه يا مارك علي بن يوسف أن تخرج من بلاده ، فقال له المعصوم نعم إنا نخرج من بلاده ، فحينئذ أمرنا المعصوم أن نسير إلى جبانة ابن حيدوس ، فالتزم بها القراءة أياما عديدة حتى سمع علي بن يوسف خبره ، فأرسل إليه وقال له الرسول ألم ينهك الملك عن بلاده ، فقال له المعصوم لست له أنا في بلد ، وإنما أنا مع الموت ، فرجع الرسول لعلي بن يوسف وقال له أمرته فلم يمتثل ، وقال لست له في بلد وإنما أنا مع الموت ، فقال علي بن يوسف سيروا بنا إليه فساروا حتى وصلوا إليه ، وقال له علي بن يوسف ألم أنهك عن بلادى ؟

(33) قتل سنة 541 هـ بعد فتح مراكش ، نقل ابن عذاري في البيان المغرب قصة قتله نقلا عن البيهقي ، وسترده فيما بعد .

(34) يينثان بن عمر (أو عمران كما عند ابن القطان في نظم الجحان) قائد مراكشي كبير ، وهو الذي قاد جيشهم في غزوة تادوزت التي هي أولا غزوات المهدي بن تومرت ، وكان الموحدون يراعون موقفه هاديا من مهديهم حتى أنهم غفوا عن بنيتهم ميمونة وتامكونت مع نساء عديدها ، كما غفوا عن ابنه عمر وسائر أبناء يينثان عندما فتحوا فاس ومراكش بسبب توصية المهدي بهم . وميمونة بنت يينثان كانت زوجة للقائد يحيى بن مريم قائد حصن (أكورة) (تازاكورت) من قبل المرابطين عند ما فتحه الموحدون عام 526 ولسا أسرها عبد المومن إبقاها في الجبل حتى اقتلها بها من كان يتلمسها من أسرا الموحدين .

فقال له ما أنا لك في بلد ، إنما أنا مع الموت ، فسار عنه وتركه فوصل إليه يينثان بن عمر ، فقال له يافقيه سر حيث شئت وأمرك الله ، ولا تجعلنا نهلك على يديك ، فأقبل الإمام علينا وقال عولوا على السير غدا إن شاء الله .

باب نذكر فيه

خروج الامام المعصوم من مراكش

الى أغمات ن وايلان

إعلم أن المعصوم لما خرج من مراكش إلى أغمات وايلان (35) نزلنا عند عثمان المعلم ، فمكثنا عنده ثلاثة أيام ، فسمعنا ولولة فقال لي مر أسأل عن هذه البشارة ، فمضيت فسألت ، فقيل لي إنما امرأة ولدت صبيا ، فقال لي الإمام صدقت ، لها تسعة ، ثلاثة في مولده ، وثلاثة في تطهيره (36) وثلاثة في زواجه ، وغير ذلك بدعة ، ثم نزلنا أغمات وريكة وذلك يوم الجمعة .

(35) أغمات : اسم لأرض واقعة على بعد حوالي 40 كلم إلى الجنوب من مدينة مراكش ، في طريق الذهاب منها إلى جبل وريكة ، سُميت بها قرينتان أحدهما كانت في عداد المدن وهي أغمات هيلانة أو أغمات ن وايلان كما يسميها البيهقي هنا في كتابه ، والثانية أغمات وريكة الواقعة في جنوبها ، والأولا أكبر وأشهر ، بنتها قبيلة هواة قبل الإسلام ، ثم فتحها عقبة ابن نافع أو موسى بن نصير على اختلاف الروايات وأسس فيها مسجدا جامعاً سنة 704 م ولما ظهر المذهب الخارجي بالمغرب كانت أغمات أحد مراكزه ، ولكنها سرعان ما عادت إلى مذهب أهل السنة عند بسط عليها الإدارة ملوك فاس حكمهم ، ولما توفي إدريس الثاني رضى الله عنه ووزعت ولايات المغرب على أبنائه كانت من حظ ولده عبد الله ، ومن ذلك الحين عظم أمرها وصارت قاعدة لناحية مراكش وقصدها العلماء والأدباء من الأندلس والقيروان ، وفي سنة 1058 استولوا عليها المرابطون وطردوا منها أميرها لتلوط الزناتي زوج زينب النفاوية التي صارت فيما بعد زوجة لأبي بكر بن عمر اللواتي ثم ليوسف بن تاشفين ، وإلى أغمات نفا يوسف بن تاشفين الأمير عبد الله بن بلقين أمير غرناطة والأمير المعتمد بن عباد أمير أشبيلية عندما قضا على ملوك الطوائف ، فذكرها على السنة الشعراء والمؤلفين منذ ذلك الوقت ، وبتأسيس مدينة مراكش واتخاذها عاصمة للملك بدأت أغمات تفقد أهميتها حتى صارت مجرد قرية بسيطة لا يدل مظهرها الحاضر على مجدها الغابر ، وقد بدأت تتعش اليوم ، وبني على قبر المعتمد بن عباد بها ضريح لائق . وقد جعلت منها الحكومة مقر جماعة قروية حلت محل بطن بني وادوز من قبيلة مسفيوة في التنظيم الإداري القديم .

(36) ختانه ، وما زالت الكلمة مستعملة بهذا المعنى في بعض الجهات المغربية .

باب نذكر فيه

خروج الامام المعصوم من أغمات ن وايلان

الى أغمات وريكة

فنزل بموضع منها يقال آيغلل ، وكان يقرئ الطلبة بجامع وطاس بن يحيى بموضع من ناحية المغرب مما يلي الصحن ، وكان عبد الحق بن إبراهيم يقرئ أيضاً ، وكان يضد بالمعصوم ويحسده فيما أعطاه الله من العلم والفهم ، وأقبل إليه فأفحمه المعصوم ، وقامت أغمات فرقتين : مؤمن وكافر ، وكان يومئذ من طلبة الامام المعصوم سليمان بن البقال (37) وإسماعيل آيكيك (38) فسار المعصوم من أغمات بعد أن أفحمهم بالعلوم ورد عليهم البين العام والخاص ، وانصرف منها بالسلامة .

(37) سليمان بن مخلوف الحفري : هواري النسب ، شهر عند الموحدين بسليمان أحضر ، وعند أهل أغمات بابن البقال وابن تاعظميت ، انضم الى المهدي بن تومرت في أغمات وريكة وصار من طلبته بها ، ولما صدق المهدي بالدعوة كان أحد العشرة الذين تابعوه ، فهو من أهل الجماعة العشرة ومن أهل الخصمين في التنظيم الحزبي الموحدي ، كان يكتب الرسائل عن أذن المهدي ، قتل في وقعة البحيرة التي تغلب فيها المرابطون على الموحدين يوم السبت 12 أبريل 1130 م (2 جمادى الأولى عام 524 هـ) .

(38) إسماعيل إيكيك : إسماعيل بن يسلاي الهزرجي ، انضم الى المهدي في أغمات وريكة وصار من طلبته بها ، ولما صدق المهدي بدعوته سارع الى مبايعته فكان بذلك من أهل الجماعة العشرة ، ولما صدق المهدي القضاء وجعله قائداً على هرقة في غزوته الرابعة ، ولما توفي المهدي كان أحد الذين تولوا عقد البيعة لعبد المومن بن علي ، ثم شارك في تقويض الدولة المرابطية وتأسيس الدولة الموحدية ، وهو الذي تولا اخضاع تودة قامت ضد الموحدين بصفرو ، ويعتبر إسماعيل إيكيك قدائياً من الطراز الأول ، أنقذ المهدي من مؤامرة دبرت لاغتياله ، وفدا عبد المومن بنفسه عندما اقترح عليه أن يبيت بدله في خبائه فصرع بإيدي من اثتمروا بعبد المومن وهم يحسبون أنه هو .

باب نذكر فيه

خروج المعصوم من أغمات وريكة

وذلك أنه لما خرج منها إلى إيكولان (39) فلما بلغوها قال إسماعيل إيكيك للامام امكث هنا حتى نصل اليك ، وكان أهل أغمات قد بعثوا لعلي بن يوسف أن المعصوم قد خرج منها مسافراً ، وذلك أن المعصوم لما خرج من أغمات سار الى أن وصل إيكولان ، فلما وصلها وصل رسول علي بن يوسف أن يؤتا به ، فقال له إسماعيل إيكيك أقم بإفقيه هنا في موضعك حتى أصل اليك فسار ثم أقبل إلينا بمئتي درقة من بني عمه وحملنا الامام معنا نحو آيسنكاي متاع هزرجة ، ثم منها لموضع آخر يُسمّى آتيفرا متاع ايمسفيوا فبنا بها مسجداً ، ثم منها نحو أنيسا متاع وريكة (40) بازاء دار أبي زكرياء اللوريكي ، ثم منها نحو أرمط (41) عند دار عبد الرخان أكسيط فبنا بها مسجداً يسما تيينيتين فأقام بها مدة الشتوة ، ثم ارتحل منها إلى تيفنوت متاع هنتانة ، ثم منها للأحد متاع آيمليل (42) ثم منها نحو دار فاسكات بن يحيى المكننا بعمر اينتي ، ثم منها نحو دار يوسف بن وانودين ، ثم منها نحو تيفنوت متاع ايزككار ، ثم منها نحو الجمعة متاع آمترين ، فوعظهم فاستجابوا له ، ثم منها نحو تادرات أغبار عند دار أبي صالح عبد الحليم بن أبي عبد السلام يصلتن

(39) إيكولان : عربية كلوان قرية معروفة بهذا الاسم الى اليوم موجودة ببطن بني عبد السلام من قبيلة مسفيوة بحوز مراکش .

(40) أنسا : قرية معروفة بهذا الاسم الى الآن موجودة ببطن بني بزكى من قبيلة وريكة بحوز مراکش .

(41) أرمط : أو أرمض كما ينطق اليوم - وقلب الضاد والدال طاء شائع كثيراً عند البربر - اسم لقرية ببطن أسنى من قبيلة غيناية من حوز مراکش ، وقرية أخرى ببطن أمزال من قيادة مزميز القريبة من مراکش أيضاً .

(42) مليل : اسم قرية ببطن جانانة من قبيلة أغبار الكندافية ، لملها كان يعتقد بها سوق يوم الأحد من كل أسبوع .

من أهل خمسين فينا بها مسجداً، فارتحل منها نحو بني واوذكيت (43) إلى دار واخليف فوعظهم فاستجابوا له . ثم ارتحل منها نحو آين مزال فجمعهم عند والائل بن يمغى ، ثم منها نحو تينفيتين ، ثم منها نحو آيزاد ، ثم منها نحو تاكوشيت متاع كدميو (44) عند دار يوسف بن جو ، ثم منها نحو تينملل ، ثم منها نحو آين ماغوس (45) ومنها نحو صودة (46) فنزل بها عند علي الصودي وعبد الرحمان الصودي ، ومنها نحو تاكطوشيت ن ينسان ، ومنها نحو آين كنفيس ، فوعظهم فاستجابوا له ، وأرسل إلى بني محمود فامتنعوا ، فمنها نحو بني واكاس عند دار عبد الرحمان بن زكو ، ومنها نحو تاكطوشيت ان يمضغال ، ثم رحل منها نحو ساحل البحر بموضع يسمى ايمسكينا ، ثم منها نحو تمننتين ، فأرسل نحو بني محمود فامتنعوا فأمر بني واكاس أن يقتلوه ثم وإذ ذاك أطاعوا ، ثم رحل عنهم نحو تامدغوست متاع ايركيتش وبنا بها داراً ومخزناً وجنائاً ، وكان على باب الدار صخرة فكان المعصوم يقعد عليها ويدور به أهل الجماعة رضي الله عنهم أجمعين ، وأقام بها المعصوم ثلاثة أشهر ، ثم منها نحو تازكاغت ، ثم منها نحو تامازيرت متاع بني لماس ، ومنها نحو إيكيلي (47) متاع هرغة فنزل داره ، وذلك في عام أربعة عشر وخمسة .

(43) وذكيت : أو بني وذكيت أو آيت واوذكيت بالسلحة اسم لقبيلة كبيرة من جذم مصودة من البربر البرانس تسكن جبال الأطلس الكبير جنوبى مراكش ، وهي منقسمة إلى قسمين . قسم صغير يسما وذكيت ، يسكن على وادي نفيس شرقى مزميز ، وقسم كبير يعرف باسمه المغرب وذكيت واسمه السلحي الأصل آيت واوذكيت يسكن أراضى كبيرة تمتد من مسفوية ووريكة القريبة من مراكش إلى وادي درعة ووادي دادس بمشارف الصحراء ، ولكلا القسمين بطون وعمان كثيرة بطون تعدداً ، تنظر في المقتبس من كتاب الأنساب ص 43 تعليق 67 .

(44) تاكوشيت : ليس في تراب قبيلة كدميو الحالى مكان يسما تاكوشيت (الكوشة) . ولكن في ناحية مراكش أماكن شتا تحمل هذا الاسم منها واحد بقبيلة وريكة (بنى بنى يران ربما كان هو المكان المقصود .

(45) ماغوسة : أحد بطون قبيلة كدميو .

(46) صودة : لا تعرف قبيلة ولا بطن بناحية مراكش يسما اليوم بهذا الاسم ، لكن يوجد بطن بنى واكوشيت من مسفوية قرية تسما يواصودن ، فلعل سكانها في القديم كانوا من قبيلة صودة .

(47) ايكي هرغة : أصل الكلمة بالسلحة ايكي ن أرغن وقد اشتبهت الكلمة على المؤلفين والنساج فكتبوها بايجيل وايجيليز ومنهم من كتبها الجبيلين ، ينظر ما كتب عن ايكي هرغة في كتاب من خلال جزوة 3 : 163 .

بقي أياماً يسيرة بداخل الغار ، وفرش له يلبتخن البرنوس ، فلما رآه إسماعيل ايكيك قد فرش البرنوس للامام المعصوم قال له يا أخى كيف تفرش البرنوس لنور العلم ، النور لا يكون إلا على النور ، فأزال من عليه كساءه وفرشها وقال اقعد ، أنت أحق بها منى ، فان الله أمرنا باكرامك رضي الله عنك ، فلما قعد نظر الامام المعصوم من باب الغار يميناً وشمالاً ، وقال : إعملوا أساراك (48) كبيراً لأن الخيل تصلكم ، ثم أمرنا ببناء المداود (49) فقال من عمل مداوداً أخذ فرساً ، ومن عمل اثنين أخذ اثنين ، ومن كذبنا حسبيبه الله ، ثم عمل آسماس (50) وعمل الملح بيده ، وقال هنا عهد الله وعهد الرسول بيننا وبينكم على الكتاب والسنة ، فلما صنع الطعام قال الناس : الامام لا يأكل ولا يشرب ، فتفرس فيهم فأوماً بيده نحو ذراع كيش وقرص منه وألقاه في فمه ، ثم قال لهم إنما أنا آكل كما يأكل الناس وأشرب كما يشرب الناس ، وأنا من بنى آدم يلزمنى ما يلزمهم ، ثم قال كلوا كما يأكل النبيون .

وهرة قبيلة الميدي بن تومرت قبيلة مصودية اسمها البربرى أرغن ، مساكنها جنوبى وادى سوس إلى الشرق من مدينة رودانة ، تشتمل في الوقت الراهن على البطون التالية : بنى عثمان ، وبنى تاموادان ، وأران ، والجرف .

(48) أساراك : مربوط الخيل باللغة البربرية .

(49) جمع مداود : مائل الدواب وموضع علفها .

(50) آسماس : باللغة البربرية السوسية سويق يلت بالسمن أو الزبد تاكله الجماعة .

باب بيعة المهدي

ثم بعد ذلك رحل إلى تينملل ، فبايعوه بها وذلك تحت شجرة الحروب ، فأول من بايع المعصوم الخليفة عبد المؤمن بن علي (51) ثم أبو إبراهيم (52) ثم بعده عمر أصناك (53) ثم عبد الواحد الشرقي (54) ثم عبد الله بن محسن الوانشرشي المكنا بالبشير (55) وبعده أبو موسا الصودي (56)

(51) عبد المؤمن بن علي الكومي : ينتمي إلى بني مجير بطن من قبيلة بني عابد أحد قبائل كومية ، ولد بقرية تاجرة القريبة من مرسا هنتين بساحل تلمسان غربي مصب وادي تافنا في شهر يناير سنة 1095 (آخر عام 487 هـ) وبويع بالخلافة سرياً بعد وفاة المهدي بن تومرت يوم الخميس 21 غشت سنة 1130 م (14 رمضان عام 524 هـ) ، وبويع البيعة العامة بتينملل بعد صلاة الجمعة يوم 8 يناير سنة 1132 م (20 ربيع الأول عام 526 هـ) وصفا له ملك المغرب بعد هلاك السلطان تانغين بن علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي بوهران يوم الجمعة 23 مارس سنة 1145 (27 رمضان عام 539 هـ) وتوفي برباط الفتح ليلة الخميس 16 ماي سنة 1163 م (10 جمادى الآخرة عام 558 هـ) وحمل إلى تينملل فدفن بها جوار شيخه المهدي بن تومرت .

(52) اسماعيل بن يسلاي الهزرجي المعروف عند الموحدين باسماعيل ايكك ، وقد تقدم التعريف به في ص 30 .

(53) عمر بن علي الصنهاجي : يعرف عند الموحدين بعمر أصناك أي الصنهاجي بالشلحة . واسمه الأول يملوك ، أحد السابقين الأولين إلى نصرة المهدي بن تومرت ونشر دعوته ، وأحد العشرة الذين سارعوا إلى بيعته ، فكان بذلك من أهل الجماعة العشرة ، استوزره المهدي ، ولما مات كان أحد الثلاثة الذين بايعوا عبد المؤمن بن علي خلفاً له ، فتحاه عبد المؤمن عن الوزارة تشريفاً له وتنويعاً بقدره لأنه أرفع منها قدراً ، توفي عام 536 هـ وكان لولاده مكانة عظيمة عند عبد المؤمن ، كانوا أول من يمر في العرض العام عند الموحدين .

(54) عبد الله الشرقي : اسمه الأول يوزيج بن عمر ، أصله من قرية ملالة القريبة من بجاية بالمغرب الأوسط ، لقي المهدي بها عند رجوعه من رحلته الشرقية فسماه عبد الواحد واستأذن أمه راحل في اصطحابه معه إلى المغرب فأذنت له وزودت رفقة بمركوب ، فسار مع المهدي وصار من خيرة أصحابه وعرف بين الموحدين بالشرقي لمجيئه مع مهديهم من بجاية وهي شرق بالنسبة للمغرب .

(55) انظر التعليق 14 .

(56) عيسا الخلاص الصودي : من أهل دار المهدي بن تومرت وأحد المختصين بخدمته . وهو أبو زينب أم المؤمنين زوج عبد الله بن محسن البشير الوانشرشي .

وبعده الفقير المؤلف ، وبعده أبو محمد وسنار (57) ، وبعده عبد الله أهلاط ، وبعده أغوال ، وبعده يبورك ايسمكين ، وميمون الصغير ، وميمون الكبير ، ويحيا المسمع ، وعبد السلام أغبي ، ومسلم الجناوي ، ومكرار وملول بن إبراهيم وأولاده ، ثم سائر الموحدين .

غزواته رضي الله عنه

الغزاة الأولى : أعلم أن أول غزوة غزاها المعصوم غزاة يقال لها تاودزت ، وكان جمع المعصوم مع الحشم ، وكان قائدهم بينتان بن عمر ، فلما تصفقت الصفوف نظر الناس للمعصوم ، ثم نظر المعصوم فيهم فقال لا تفزعوا فانهم هاربون ، وكذلك كان فعلهم إنما كان هروباً ، وقتل ودسكاتين وصلبه على الرأس وكان من كنيسة (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً) .

الغزاة الثانية ، لسيدينا المعصوم : وذلك أرشدك الله أنه لما بلغه أن جيش المجسمين أتاه يقدمهم سليمان بن يكلد وابن أبي فراس وعبد الرحمان قاضي السوس ويأثو قال لنا المعصوم لا تجزعوا ، فانكم تقبلون منهم الهدية ، فقلنا ياسيدنا وكيف يهدي لنا أعداؤنا ؟ قال لنا الرعب الذي يرمى الله في قلوبهم ويردهم ، فلما وصلوا أمرنا المعصوم أن نخرج اليهم ونكسر من ذكر الله وقول لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، فلما التقا الجمعان كبر المعصوم فيهم وقال لنا الله ينصركم عليهم ، ثم قبض قبضة من تراب ورمأها في وجوههم فانهزموا وتركوا الخيل والبغال الذخر والسلاح ، وانقلبوا خاسرين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاً الله على محمد خاتم النبيين .

الغزاة الثالثة لسيدينا المعصوم : وهي بموضع يقال له ثلاث أن ميترك بعد أن بعث المجسمون كتاباً فرد لهم سيدينا المعصوم الجواب وجلس

(57) وسنار بن عبد الله : من أهل دار المهدي وأحد المختصين بخدمته .

في الدار ثلاثة أيام ، وخرج لنا فدخلوا لزيارته وقالوا له ما حبسك عنا ؟ قال لهم عبد العزيز بن ياكربيان قد أرشأ علينا من يقتلنا بمئتي دينار وزوج كتب ، وسيروا إليه وصبحوه وإن أبا خذوا من عند رأسه الكتب ، فوجدوا الكتب عند رأسه وقتلوا عبد العزيز وصلب ، وخرج الامام المعصوم ويسمونه يقول عندنا رجل من بني كئونة يقتل كئونة (58) فلما وصل الامام المعصوم جيشهم قال لنا لا تفرغوا منهم ، فان الله يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت ، فالتقا العين بالعين ، فهزمهم باذن الله ، (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً) ، والحمد لله رب العالمين وصلا الله على محمد خاتم النبيين .

الغزاة الرابعة لسيدنا المعصوم : إعلم يا أخى أن سيدنا المعصوم

لما أراد الله أن يخرجهم للغزو خرج لموضع يقال له تيزى آن ماستت ، وكان يقدم جيش الزاجنة (59) رجلان يقال لأحدهما يانش وللثاني أكدي بن موسا ، فوصل لنا الخير ، فأمرنا المعصوم بالخروج ، وخرجنا ، فلما اجتمعنا معهم أخذ علماً أبيض فدفعه للخليفة الامام عبد المؤمن بن علي ، وأخرج معه كديمية (60) وأخذ علماً ثانياً أصفر فدفعه لأبي إبراهيم وقدمه على هرغة ، وأخذ

(58) بنو كئونة : عشيرة عبد المؤمن بن علي الكومي أول خلفاء الموحدين ، وكئونة جدته من قبل أبيه ، وهي بنت ادريس الثاني بن ادريس الأول بن عبد الله الكامل بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

ولمئونة هي قبيلة سلاطين المرابطين .

(59) الزاجنة : ج زرجان ذكر ابن القلان أنه نظم الجمان أنه طائر أسود البطن أبيض الريش ، شبه به المهدي بن تومرت المرابطين لأنهم في رأيه بيض الثياب سود القلوب ، كما سماهم المجسمين لأنه ألزمهم في المذاكرة أن يقولوا بالتجسيم والمكان ، وسماهم أيضاً العشم للثاميم كما تفعل النساء المتحشمات .

(60) كديمية : قبيلة مصمودية كبيرة تسكن في جنوب مراكش الغربي . بطونها : بني علي ، وبني بورد ، وبني كابر ، وبني كاسة ، وبني تابكاو ، ونيكسية ، وأميسميسرت . ومزمين ، وأنوكل ، وأسيف المال ، ودار أكيماخ ، وداناسة ، والرودز ، وملوانة ، ووينسكرة . وسيباطرة . وماغوسة . وويلنة . ووادي أكبر ، وتيكيدار ، وتيزكين . ومن قرأها الشهيرة : مزمين وأزكود .

علماً ثالثاً أحر ودفعه لعبد الله بن ملوية (61) وقدمه على كنفيسة ، ثم أخذ علماً رابعاً ودفعه لياكثتن وقدمه على أهل تينملل ، ثم أخذ علماً خامساً ودفعه لعمر آينتي (62) وتقدم لهنتانة (63) ثم سائر القبائل على هذا الترتيب ، ثم قال لا تهبطوا للوطاء وأتركوهم يصعدوا إليكم ففعلنا ذلك ، فقال خذوهم على بركة الله فهزمناهم باذن الله ، والله مع الصابرين .

الغزاة الخامسة لسيدنا المعصوم : إعلم يا أخى أن الله تعالى لما أراد

غزاة أنسا أن يمايدبن قدر الحق سبحانه أن أزعج عمر بن ديان من مراكش ، ثم وصل إلى أنسا بجيش كثير ، فبلغ الخبر للمعصوم ، فلما بلغه ذلك قال سيروا إليهم على بركة الله ، فلما التقا العين بالعين قاتلناهم قتلاً شديداً وقاتلونا كذلك حتى سقط فيها المعصوم ورد عليه كثير من الناس حتى قام وانهزم المجسمون بفضل الله ورحمته وصلا الله على محمد وآله .

الغزاة السادسة لسيدنا المعصوم : وهي غزاة تيفنوت ، وذلك

أن المجسمين قدموا أبا بكر على جيش ، فخرج بهم نحو تيفنوت ، فخرجنا نحن وراءه فلما وصل بنا المعصوم إليهم قال خذوهم على بركة الله ، فكان بيننا وبينهم قتال شديد ، فلما رأوا مالا يطيقون افترق النظام ورجع كل

(61) عبد الله بن يعلا الزناتاني : من أهل تازة ، يعرف عند الموحدين بأبن ملوية ، من أهل انجماعة العشرة . ارتد عن الدعوة الموحدية بعد وفاة المهدي وانضم إلى علي بن يوسف سلطان المرابطين ، فقتلته كنفيسة وصلبته بتينملل فشكل لها عبد المؤمن فعلها ، وهو أول ثائر تار على الموحدين .

(62) عمر بن يحيى الهنتاني : أبو حفص جد ملوك بني حفص بتونس ، كان يعرف بعمر آينتي ، واسمه الأول قاصكة فسماه المهدي عمر ، من أهل انجماعة العشرة ، وأحد أغوان المهدي القريين ، تولا عقد البيعة لعبد المؤمن بن علي ، وشارك في تأسيس الدولة الموحدية وتوسيع مناطق سلطنتها بالغرب والأندلس ، وهو الذي فتح الجزيرة الخضراء ورندة واشبيلية وقرطبة وغرناطة ، وشارك في القضاء على ثورة محمد بن عبد الله بن هود الماسي ، توفي في الطاعون الجارف الذي دم المغرب والأندلس عام 571 .

(63) هنتانة : من أكبر قبائل مصمودة في مصر الوسيط كانت تسكن الجبال الشامخة الواقعة خلف مراكش وقد اندثر هذا الاسم الآن ، وحلت محله أسماء بطون القبيلة مثل غيفاية التي ارتفعت الآن إلى مصاف القبائل .

واحد لموضعه ، فأقام سيدنا المعصوم أياماً ثم قال عولوا على الغزو إن شاء الله تعالى والله المستعان .

الغزاة السابعة لسيدنا المعصوم : أعلم يا أخى وفقنا الله وإياك أنه لما خرج المعصوم لغزاة هسكورة سراً لموضع منها يقال له أزلِيم فتقاتلنا معهم وشد الوطيس حتى شج المعصوم ورفع إسحاق بن عمر ووسنار ، وكان العبد الفقير المؤلف أبو بكر بن علي الصنهاجى المكناً بالبيدق يمسك البغلة تمويقت ، وكان يخلف أستمكى يمسك الدركة والرماح ، فأتينا به حتى وصلنا المنزل ورجعنا للقتال حتى أخذ الله الذين ظلموا وقيل بعداً للقوم الظالمين ، ونصر الله المهدي وطائفته أهل الحق وأنصار الدين ، والحمد لله رب العالمين ، فرجعنا ، فلما برز المعصوم خطبنا ووعظنا وقال الحق عندنا وفرعه من توندوت ، ثم أزعج الله ابن توندوت فأمر بتجديد الجيش وقال عولوا على الغزو إن شاء الله .

الغزاة الثامنة لسيدنا المعصوم : أعلم يا أخى أن الله تعالى لما أزعج سيدنا المعصوم لغزاة تراكورت (64) فتحها الله يومئذ بلا سور فغزى بها شقي^ق يقال له دَمَام ، فأخذنا بها عبيداً فقال المعصوم لميمون الكبير خذ هؤلاء إخوتك ، وكانت ألفتهم مع عبيد أزلِيم ، فسامهم المعصوم عبيد المخزن ، ورجعنا نحو تينملل ، فأقمنا بها أياماً ثم أمرنا المعصوم بالخروج فخرجنا لموضع يقال له أسدرم متاع الغزى فسرنا إليه على بركة الله .

الغزاة التاسعة لسيدنا المعصوم : وهي بموضع يقال له أسدرم ن الغزى ، فسار بنا المعصوم حتى وصلنا إليه ، فقال للموحدين ما يقولون بعد أن سمع منهم كلاماً من عندهم ، قالوا له لقبونا ، قال وكيف لقبوكم ؟ قالوا يقولون خوارج ، قال سبقونا بالقبيح لو كان خيراً أحجموا عنه وما سبقونا إليه ، لقبوهم أنتم فان الله ذكر فى كتابه (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) الآية ، قولوا لهم أنتم أيضاً المجسمون ، ففعلنا ، ثم اشتد علينا

(64) هل هي ذاكرة اقليم ورازات ؟

الوطيس ، فقال المعصوم لو كان كيك على كيك حتى يبلغ سبعة أكياك لابد من يوم الخميس ، وكذلك كان ، والحمد لله رب العالمين ، فافترق النظام ، ثم أقام أياماً عدة فأكرم الله المهدي بدعوة البشير ، فأمر بالميز ، فكان البشير يخرج المخالفين والمنافقين والخبيثاء من الموحدين حتى امتاز الحبيث من الطيب ، ورأى الناس الحق عياناً ، وازداد الذين آمنوا إيماناً ، وذاق الظالمون النار فظنوا أنهم واقعوها وما لهم عنها من محيص ، وكان تمييز البشير للخلق من يوم الخميس إلى يوم الجمعة بعد أربعين يوماً ، فمات يومئذ من الناس خمس قبائل بموضع يقال له يكر بن وسنان ، مات به يسلد ابن نواه ناين ، ومات من هنتاة يمنتزكا ، ومات ابن ماغوس بموضع يقال له يكر ن آيت كوريت مع أصادن وكدميو متاع تاكوشت ، ثم ميز البشير يريد الغزو على بركة الله تعالى .

باب نذكر فيه

غزاة البشير رضى الله عنه

أعلم يا أخى أن البشير لما خرج للغزو جد حتى وصل لموضع يقال له تاغزوت ، ثم لوا بالخيل لموضع يقال له مشرا كمار بيران تغردآيين فقتل به عمر بن يملوك وغنم خيله ورجعنا الى تاغزوت بفضل الله ودعوة الرضا وأقمنا بها أياماً .

ثم بعد ذلك خرج الناس كافة للبحيرة ، فكان من أمرها ما كان ، وعملنا فى الطريق إلى مكدار خمسة عشر يوماً ، فاجتمع معنا بها ثلاثة آلاف ، وكان بها ثلاثمئة عجوز ، وكان يوم نزولنا بمكدار (65) يوم الأربعاء من شهر

(65) مكدار : وبالشلحة أمكدار : يوجد بقبيلة مسفيوة من حوز مراكنى مكانان يسما كلاهما بمكدار . أحدهما موجود ببطن بنى سيلم ، والآخر ببطن بنى تيفيدوين .

أبريل، فقلعنا يوم الخميس ونزلنا البحيرة (66) وبقينا بها أربعين يوماً، فلما كان بعد أربعين يوماً أقبلت العساكر نحو مراكش ودخل أبو بكر بن الجوهري بعسكر مسكورة ودخل البلد ودخل يحيى بن ساقطن بعسكر صنهاجة فدخل المدينة فأقبل ياسين بن فيلو بعسكره وأقبل بعسكر الغرب ودخل مراكش ونزل بجانبنا في البحيرة، فقبل له ادخل فقال لا، فلما أصبح الصباح قاتلناهم قتالا شديداً وكان معنا أهل ايلان عن بكرة أبيهم، وهزمونا بالعشي ونجا الموحدون ومات من مات وافترق الناس، وجاز الخليفة مع طلبه أغمات على هيلانة فأصبح لنا الصباح بموضع يقال له أيمن ن الزات (67) فقلعنا مع أيمن ن الزات حتى وصلنا لدرن وهزجة يسبوننا، فلم نزل كذلك حتى وصلنا تيفنوت، فأقبل علي الخليفة الرضي عبد المؤمن بن علي وقال لي ياأبا بكر، أسرع بنا نحو المعصوم فأسرعت حتى وصلت المعصوم، فأعلمته، فقال لي عبد المؤمن في الحياة؟ قلت نعم! قال لي الحمد لله رب العالمين، قد بقي أمركم، هل جرح؟ قلت شج في خده الأيمن، فقال لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، الأمر باقٍ ثم قال لي ارجع إليه وقل له الأمر باق، ولا تجزعوا فرجعت حتى لقيته فأعلمته، ففرح وفرحنا، فلما وصلنا أقمنا أياماً.

وجد علي بن يوسف (68) عساكر أخرى وأقبل إلينا بأربعة جيوش، عسكر لسير بن واربيل، وعسكر لمسعود بن ورتيغ وهم زناتة، وعسكر ثالث ليحيا بن سير، وعسكر رابع ليحيا بن كانجان، فتقاتلنا معه بموضع

(66) البحيرة: وتعرف أيضاً ببحيرة الرقائق بسيط كان أمام باب الدباغين وباب ايلان من مراكش حيث حدثت أحداث الحالية، جرت به الوقعة الكبيرة التي يتحدث عنها البيهقي، وكان وقوعها يوم السبت 12 أبريل 1130 م (2 جمادى الأولى عام 524 هـ).

(67) ثم الزات: وبالضلع أيمن ن الزات، ربما كان هذا المكان موجوداً ببطن آيت الزات من قبيلة مسفيوة بجوار مراكش.

(68) علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني الصنهاجي، أمير المسلمين ثاني سلاطين الدولة المرابطية، ولد سنة 1083 م (477 هـ)، وعهد إليه أبوه بالملك سنة 1103 م (497 هـ) وبيع اثر وفاته يوم الاثنين 3 شتنبر 1106 م (2 محرم 500 هـ)، وتوفي بمراكش يوم الأربعاء 20 يناير 1143 م (7 رجب 537 هـ). كان ملكاً عظيماً على الهمة عظيم القدر شهير الحلم نصيراً للحق والعدل ملازماً للجهاد والفرح محباً للعلم نصيراً للفقهاء، إلا أن ثورة محمد بن تومرت كدرت صفوه وزعزعت حكمه، حتى توفي حنق أنه وملك دولته في اديار، وأوصا أن يدفن بين قبور المسلمين فدفن بها في جبلتهم.

يقال له إيكرا متاع بني كوربيت، فأقبلت إلينا عنتاتة وكنفيسة ومزالة واجتمعنا فلما رأوا منا ما لا يطيّقون رجعوا إلى مراكش ونحن لتينمل، وجعل المعصوم برجاً يقال برج تيطاف (69) وجعل فيه طبلًا، وكان يمسك الطبل عبد السلام آغني، فلما كان في بعض الليالي أفلت الطبل، وقامت عندنا رجة، فقام عبد السلام يقول لا لا الطبل أفلت لي، فقال سيدنا المعصوم ابشروا هاذي البشارة.

فأقمنا بها أياماً عديدة، فبعث سيدنا المعصوم نحو القبائل فأقبلوا ثم إنهم ميزوا وكان ذلك اليوم طلبه كنفيسة غائبين فلم تجيء حتى ميزت هرغة، فقال رجل نحن كنفيسة قال طلبناكم فيها وجدناكم ما الذي أبطأ بكم؟ فقال له كان علي عذر وما سمعتك، ثم نفذ التمييز وبقي يملوك بن علي المكتأ بعمر أصناك فغلبت عليه نفسه، فقال له المعصوم الحق ما قلت، أعيدها الميز، فأعيد الميز، فلما جازت بغلة المعصوم قال جوزوا فرس عمر أصناك، فلما جاز أخذ المعصوم القلم من يد إسحاق بن برنوس وكتب محمد بن عبد الله عمر بن علي أصناك ثم مشا سائر الموحدين وعاد عمر مع أهل تينمل.

فأقمنا بها ثلاثة أشهر، فوجد المعصوم في نفسه مرضاً فقلعنا معه لفدان امديوس والصبيان معه، ثم رجع بنا نحو تينمل، فجاز في طريقه على فدان من جليان، فقال اقلعوه فقلعناه، فلما قلّع قال تخاطفوه فأخذ كل واحد قدر مقدورته فتبسم وقال هاكذا تتخاطفون بعدنا على الدنيا وكان مريضاً، فقُذت به البغلة، فكان الشيخ أبو محمد عبد الواحد علي يمينه والشيخ أبو محمد وسنار علي شماله حتى وصلنا الدار، فوقف وأمر الموحدين أن يجتمعوا فحضروا كلهم ثم وعظ الناس حتى أضحا النهار ثم دخل ببغلة الدار راكباً وبقي ساعة ثم خرج يرفع الكرزية (70) عن رأسه، ثم قال اعرفوني

(69) تيطاف: العسة باللغة البربرية، وبرج تيطاف هو المحرس في الاسطلاح العسكري المغربي القديم.

(70) الكرزية: نسج مستطيل الشكل من صوف كان يتعم به ويتجزم، وهو منسوب إلى الكرزيان أي خيوط الصوف، والكلمة ما زالت متداولة على اللسان إلى الآن.

وحققوني أنا مسافر عنكم سفراً بعيداً ، فضج الناس بالبكاء ، وقالوا له إن كنت تسير إلى الشرق نسير معك ، فقال ليس هاذا سفر يسافره أحد معي ، إنما لي وحدي ، ثم دخل ولم يره أحد أبداً ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

فحضر معه في غيبته خمسة أناس : الخليفة (71) وأبو إبراهيم (72) ، وعمر أصناك ، ووسنار ، وأخته أم عبد العزيز بن عيسا ، ثم خرج أبو محمد وسنار وقال يأمركم المعصوم أن تفعلوا كذا وكذا ، فكنا نفعله ، وكان أهل الجماعة يخرجون للفرز بالدولة أقام الأمر كذلك ثلاثة أعوام .

« وذكر في كتاب المجموع أن الإمام المهدي لما حضرته الوفاة جلس ذات يوم في بيته إذ سمع صوتاً رقيقاً من وراء البيت وهو يقول (الطويل) :

كأنى بهذا البيت قد باد أهلـه وقد درست أعلامه ومنازلـه
فأجابه المهدي :

كذلك أمور الناس يبلا جديدها وكل منا حقاً ستبلا خصائـله
فأجابه الهاتف فقال :

تزود من الدنيا فانك راحل وانك مسؤول فما أنت قائله ؟
فأجابه المهدي :

أقول بأن الله حق شـهـدته وذالك قول ليس تخفـا فضائلـه
فأجابه الهاتف فقال :

فخذ عدة للموت إنك ميت وقد أرف الأمر الذي أنت نازلـه

(71) أي عبد المؤمن بن علي .

(72) اسماعيل بن سلال الهزرجي المعروف عند الموحدين باسماعيل إيكك أي الرعد .

فأجابه المهدي :

متى ذاك خبرني هديت فانسي سأفعل ما قد قلت لي وأعاجله
فأجابه الهاتف فقال :

تبيت ثلاثاً بعد عشرين ليلة إلى منتها شهر فما أنت كاملـه
قال : فما لبيت إلا ستة أيام فمات رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة منزله ومأواه .

« ومما نُقِلَ عن بعض أشياخ الموحدين أعزهم الله أن الامام المهدي لما كان عند وفاته ولقائه لربه قال لأصحابه اسألوني عما بدا لكم من أمر دينكم ودنياكم فانني غداً إن شاء الله أجتمع مع ربي فتقدم إليه الخليفة مع أهل الجماعة فقالوا نسألك عن الرزق ، قال لهم ما عسا أن أقول لكم في أمر مقسوم مفروغ منه ؟ فقالوا له أفنطلبه ؟ فقال لهم إن كنتم تعلمون له موضعاً فالتمسوه فيه ، فقالوا له أفنسأل الله فيه ؟ فقال لهم إن كنتم تعلمون أنه ينسأكم فذكروه ، فقالوا له أفنتوكل على الله فيه ؟ فقال لهم إن التوكل في الحقيقة هو الشك ، فقالوا له فما الحيلة ؟ فقال لهم ترك الحيلة والتسليم إلى ما قسمه القاسم ، فقالوا له في أي وقت تأمرنا بالحركة ؟ فقال لهم لا تبردوا صيفة ولا شتوة ، وكفا بما في الشرائع من الحزم والعزم ، وأنا أقول لكم كما قال رسول الله صلاً الله عليه وسلم : لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ألا قد بلغت؟ ألا قد بلغت؟ قد بلغت ؟ » .

« وتوفي رضي الله عنه يوم الأربعاء وقيل يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان المعظم من عام أربعة وعشرين وخمسمئة وببيع الخليفة يوم السبت الأقرب من هذا التاريخ ، وكتب يوسف ابن سيدنا أمير المؤمنين بحضرة سيدنا وبين يديه وبأمره العالي ونقله من خط الشيخ أبي إبراهيم رحمة الله عليه يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وخمسمئة » .

« وتوفي مولانا الخليفة الامام رضي الله عنه ونور ضريحه وقدر روحه ورزقنا بركته وجمع بينه وبين أصحابه في الملاء الأعلام قبل الفجر من يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة من سنة ثمان وخمسين وخمسمئة فجزاه الله عنا وعن جميع الموحدين وعن قيامه بأمر الله واجتهاده في طاعة الله وأداء أمانته بما جزا به عباده الصالحين ، فانا لله وإنا اليه راجعون على فقده ومصابه ، وليس إلا الايمان والاستسلام لقضائه وقدره ، وكل شيء هالك إلا وجهه ، ونقل بجانب الامام المعصوم يوم الجمعة أول شعبان سنة ثمان وخمسين وخمسمئة ، وكتب يوسف ابنه ليلة الجمعة الثانية من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين وخمسمئة ، وبويع الخليفة الرضي سيدنا أمير المؤمنين ابن الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنهما ورزقنا ببركتهما البيعة العامة وتمت له يوم الجمعة الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمئة » .

انتها ما اقتبس من كتاب المجموع ، رجعنا إلى الأم (73) .

باب نذكر فيه

غزة عمر أصناك

بموضع يقال له تيزي ن الاينات ، قتل فيه إبراهيم بن تاعيشتم (74) وغنم منها خيراً كثيراً ثم رجع بالناس إلى تينملل .

(73) الفقرات المتقدمة المقتبسة من كتاب المجموع لا يعرف هل أحدها المؤلف أو النسخ ، فإن كانت من عمله فهي تدل على أن البيهقي عاش بعد عبد المؤمن .

(74) ابن عائشة وبالشلحة ابن تاعيشتم : هو الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ، عرف باسم أمه ، كان من أعظم قواد المرابطين ، وله على التصار بالاندلس وقائع كثيرة ، ولأخيه أمير المسلمين على بن يوسف ولايات كثيرة بالاندلس والمغرب ، جعل ابن القطان تاريخ مقتل في سنة 528 هـ ، وحادث الأمير هو الذي ألف الفتح بن خاقان كتابه قلائد العقيان برسمه ، كما أنه ممدوح الشاعر ابن خفاجة الشقري بكثير مما هو مشتهر في ديوانه ، وأشار ابن سعيد في المغرب إلى كثير ممن اتصل من الشعراء به .

باب نذكر فيه

غزة عبد الرحمان بن زكو بتاسفي موت (75)

كسرنا فيها ميمون بن ياسين وأتيننا بأبوابها وعمالها وركبت أبوابها على تينملل وهي المعروفة بباب الفخارين ثم أقمنا أياماً وسرج الخليفة .

باب نذكر فيه

غزة الخليفة أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي

وهي غزوة كزولة

وهي أول غزوة غزاها تقاتل فيها مع تاشفين والشنيور (76) واخترقاعن سلام ، وأقبلنا على الكست ثم رجع إلى تينملل .

وصاح بالقبائل وضم الموحدين وجعل المجلس ، واستعمل ركائز وحال بين الرجال والنساء ، ثم وعظ الناس وقال لهم في آخر كلامه : بقي عندكم عهد بيعة المهدي رضي الله عنه قالوا نعم ، فقد تم وعهد أصناك ثم سائر المشيخة رضي الله عنهم أجمعين ، ثم قال لهم المهدي قد توفي رضي الله عنه ، فيكا الناس ثم قال لهم اسكتوا فسكتوا ، فقال أبو إبراهيم وعمر أصناك وعبد الرحمان بن زكو ومحمد بن محمد لعبد المؤمن : امدد يمينك ، أيعك البيعة التي عقدناها مع الامام المهدي فمد يده وبايعوه ، ثم تبعهم سائر الناس حتى

(75) سفيوطة : وبالشلحة تاسفيوطة دوار معروف إلى اليوم موجود ، ظهر بني كوجكال من قبيلة تكانة قيادة دريرة (آيت ورير) جنوب مدينة مراكش ، وقد كان المرابطون يسمون فيه حساً (76) الشنيور : كلمة إسبانية معناها السيد . ربما كان المغاربة يسمون بها قلعة من قواد الصناري الأسبانيين الذين كانوا يعملون في الجيش المرابطي .